شيء من التاريخ

الجزيرة العربية قبل الإسلام

نشأ العرب في جزيرتهم التي تمتد من الخليج العربي وخليج عمان شرقاً، حتى البحر الأحمر غرباً، ومن تخوم بلاد الشام شمالاً، حتى بحر العرب جنوباً. تَغْلِبُ عليها الصحراء الحارة ذات الأمطار القليلة، وتتخللها واحات صغيرة، إلا أنها تضم مناطق خصبة في الحجاز غرباً، وفي اليمن وحضرموت وعُمان جنوباً.

وانقسم العرب قسمين ؛ الأول القحطانيون في الجنوب وهؤلاء بَنَوْا حضارة قديمة وأسسوا ممالك معروفة لها قوانينها.. ثم انهارت حضارتهم وتفرقوا في الجزيرة وأطرافها. والقسم الثاني العدنانيون في الشمال، وكانوا في الأعم الأغلب بُداة يعيشون في قبائل متنقلة، تحكمها أعراف وتقاليد تواضعت عليها، لا يخرج أحد عنها، ولم يقيموا شكلاً واضحاً للدولة بمعناها السياسي المعروف .

آمن العرب بالله تعالى، وكان فيهم أنبياء، أما العرب الشماليون فقد عبدوه على دين إبراهيم الذي أقام الكعبة في مكّة، وهو دين الحنيفية الذي يدعو إلى إله واحد كسائر

الأنبياء، ثمَّ اتخذوا مع ذلك أوثاناً عبدوها لتقربهم إلى الله زلفى. وكانت مكة عاصمتهم الدينية، وإليها يحجون كل عام، وكانت فيها أصنام كثيرة، قيل إنها بلغت ٣٦٠ صنماً، يعظمونها، ويذبحون عندها ذبائحهم، ويستشيرونها في علم الغيب على نحو مخصوص، وكان إلى جانب عبادة الأصنام وثنيات أخرى كعبادة الجن والأشجار والنجوم.. ومع هذه الوثنية المغرقة دان بعضهم باليهودية والنصرانية، قامت بين أتباعهما صدامات دينية وعنف في اليمن.

وكانت قبيلة قريش أكبر القبائل العربية وأغناها هي التي تحكم مكة، وإليها الزعامة الدينية، والعرب يهابونها، ويرفعون قدرها على سائر القبائل. وكانت تستضيف الحجاج تطعمهم وتسقيهم في موسم الحج.

اكتسبت قريش غناها من تجارتها الواسعة التي ترحل من أجلها إلى الشام والعراق ومصر واليمن، وكان تجارها بُصراء باقتناء المال، حتى عاشوا من بين العرب كلهم حياة مترفة رافهة.

ولخبرة قريش بالتجارة فقد أحدثت أعظم سوق في الجزيرة كلها وهو سوق عكاظ، واختارت له الوقت المناسب وهو زمن الحج حين يفد العرب إلى مكة.. واستحدثت خلال ذلك فكرة الأشهر الحرم ليأمن الناس كلهم على أنفسهم، فيلقى الرجل قاتل أبيه وأخيه فلا يلتفت إليه، ويتجاوزه لا يأخذ بثأره منه..

مما أشاع الأمن مدّة الحج ؛ قبله وبعده.. وتلك أفكار ذكية ابتكرتها قريش على ما يُظن لاستغلال التجارة على أعلى مستوى في اختيار الزمان والمكان المناسبين إضافة لفرض الأمن.

ولئن اشتغل بعض العرب بالتجارة، فإن كثيراً من القبائل كانت تمتهن الرعي وتعيش عليه، وتنتقل من أجله في طلب الماء والعشب.

وتأتي على الصحراء سنوات عجاف، وتقل الموارد، وعندئذ تعتدي القبائل القوية على القبائل الضعيفة فتقتل من يقف في وجهها، وتصادر أموالها وتسبي نساءها وذراريها، فيصيرون عبيداً لها وإماء، لا لشيء إلا لأنهم ضعفاء.. والحكم للقوي.

وكان المجتمع في الجاهلية متفاوتاً في المكانة، فالطبقة الأولى للأشراف وكبار رجال القبيلة، دونهم الفرسان المقاتلون المقدمون في المجتمع الذي يدافعون عنه.. وفي الطبقة الدنيا العبيد والإماء ومن ليس له نسب شريف، وليس لهؤلاء حقوق أبداً، يقعون في موقع الإهانة، لا يدافع عنهم أحد. وللمرأة الشريفة الحرة في هذا المجتمع موقع محترم، وكان لها حرية الإرادة ونفاذ القول. وهي امرأة صيّنة عفيفة بخلاف النساء من المرتبة الدنيا، وخصوصاً الإماء.

وانتشر الزنا في المجتمع، لم يتورع عنه إلا أفرادٌ من

الرجال معروفون، أحسوا بخطر هذه الرذيلة، ثم بالإضافة إلى ذلك ربما تزوج الرجل عدداً من النساء لا حد له، وقد يتزوج امرأة أبيه إذا مات عنها.

وشاع الخمر شيوعاً لا حدّ له، وربما كان شربه نوعاً من الفخر، يتمدح به الشعراء الذين ملؤوا بوصفها أشعارهم. ومع الخمر اشتغلوا بلعب الميسر[١].. وكثيراً ما كان ينتهي العكوف على الخمر والميسر إلى شجار وقتال، تليهما عداوة وبغضاء.

وحكمت المجتمع عادة سيئة إلى جانب ما ذكرنا، هي عادة الأخذ بالثأر التي كانت تستجر الأحقاد وتزيدها، ومن خلالها كان الموتورون يدورون في حلقة مفرغة من الانتقام وردود الفعل.

وكانت الحروب تشتعل لأدنى سبب، وربما استمرت أعواماً كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء، لا تنتهي إلا بعد جهود يبذلها العقلاء.

وفي مقابل ذلك تمسّك آخرون بفضائل رفيعة واعتزوا بها، هي أخلاق الشجاعة في الدفاع عن الحق، وإكرام الضيف، وإغاثة الملهوف والخائف وحمايتهما، والوفاء بالعهد، ونبذ الخيانة. فكان أي عربي غالباً ما يلتزم بما يقوله، فلا يغدر ولا يتراجع عن وعوده.

وامتنع عدد من العقلاء عن الدنايا، فلم يشربوا خمراً، ولم

(١) الميسر : قمار العرب في الجاهلية.

يمجدوا الأصنام، وعفّوا عن المحارم، وقاموا مع المظلوم.. وتبرؤوا من العدوان. وأنشؤوا من أجل ذلك حلف الفضول تعاهدوا فيه لما كثر الظلم أن يكونوا مع المظلومين من أهل مكة ومن الوافدين.. وهؤلاء العقلاء عبدوا الله تعالى على دين إبراهيم دين الحنيفية، وهذه الأخلاق هي التي عناها النبيﷺ بقوله «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[١]، وقال كذلك : «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقُهوا»[٢].

وكانت معارف العرب الجاهليين بسيطة، ولذا فلا تسمى علوماً، قامت على التجربة، ودفعت إليها الحاجة؛ فقد مهروا بالقيافة[٣]، وعرفوا النجوم، وسَمّوا كثيراً منها، واستهدوا بها في الفلوات، وظهر فيهم أطباء، داووا المرضى، وأصلحوا الكسور، وعالجوا الحيوانات، وافتخر العرب بالفصاحة والبيان، واحتفلوا بالشعراء والخطباء، وأعلوا مكانتهم، واستمعوا إليهم في المحافل.. فلما نزل القرآن بلغتهم أدهشتهم بلاغته، وعجزوا أن يأتوا بمثله، مع أنه تحداهم في نسيجه اللغوي العالي. ومع ذلك فقد حاربوه ابتداءً، لأنه أراد أن يقلب مفاهيم الجاهلية كلها.

---

(١) كنز العمال ٣/ ٥٢١٧.

(٢) كنز العمال ١٠/ ٢٨٧٦١.

(٣) القيافة : معرفة تتبع الآثار ومعرفة النسب بالفراسة.

هذا ما كان من شأن العرب لما بعث الله منهم محمد بن عبد الله رسولاً ليس لهم وحدهم، بل للإنسانية جميعاً، وكان خاتم الأنبياء والمرسلين. ولا نبي بعده.

السيرة النبوية

ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم في مكة المكرمة عام ٥٧٠ ميلادي.

فتح عينيه للدنيا يتيماً، مات أبوه وهو حمل في بطن أمه آمنه بنت وهب، فرعاه جده وبعثه إلى بادية بني سعد قرب مكة مسترضَعاً فيهم، لينشأ على القوة والفصاحة، فبقي عندهم خمس سنوات، رجع بعدها إلى أمه التي ما لبثت أن توفيت بعد سنة من وجوده معها، وأشفق عليه جده وأولاه عناية خاصة، إلا أنه لم يطل به العمر، إذ مات ومحمد في الثامنة من عمره. فانتقلت كفالته إلى عمه أبي طالب، فعاش في بيته كأولاده، وما كان يُفضِّل عليه أحداً منهم.

لزم محمدٌ عمَّه، وتعلق به، كما تعلق به عمُّه أيضاً، حتى صحبه في إحدى تجاراته إلى سوق مدينة بصرى في الشام، وهو ما يزال في العاشرة أو الحادية عشرة، كما عمل معه شاباً في التجارة، وتعلمها منه.. وعمل صغيراً في رعاية الغنم على أجر زهيد.

واستقل فيما بعد بالتجارة، فكان له شريك يدعى السائب بن

أبي السائب، وكان يتاجر بالمضاربة[١] أو غيرها، ويتردد على أسواق الجزيرة، وخصوصاً سوق حُباشة على طريق مكة - اليمن.

واتفق أن كلفته السيدة الشريفة خديجة بنت خويلد بالسفر في تجارتها مع قافلة الشام، فعاد إليها بربح مضاعف لمست فيه أمانته، وعرفت قدره وشرفه عن قرب، فرغبت به، وعرضت عليه الزواج، فباركه أعمامه كلهم.

عاش محمد بن عبد الله مع خديجة حياة هانئة سعيدة، أنجبت له فيها ولديه القاسم وعبد الله، وماتا صغيرين، فلقي لموتهما هو وأمهما حزناً شديداً. كما أنجبت له بناته زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.

حمدت قريش سيرة محمد بن عبد الله، وكانت تثق برأيه وحصافته لمواقف له مشرّفة، وما طعنت يوماً بخُلُقه، فكان أفراد منها إذا خافوا على مال أو متاع وضعوه عنده، فعُرف بينهم بلقب «الأمين».

وكان محمد ينفر من جاهلية قومه، فلم يسجد لصنم من أصنام قومه، ولم يحترمها يوماً، ولم يأكل مما كان يذبح

(١) المضاربة : عقد شركة في الربح بمالٍ من شخص، وعمل من شخص آخر.

عندها، ولم يخض بشيء من وثنيات الناس وانحرافاتهم ولا لهوهم..

وحين بلغ نحو الأربعين من العمر حُبِّبت إليه الخلوة، فكان ينطلق نحو غار حراء في بعض الجبال العالية من مكة، فينقطع فيه عن الناس الليالي ذوات العدد.. يعبد الله على بقية دين إبراهيم عليه السلام، ولعل ذلك كان في بعض شهور رمضان.

وفي إحدى ليالي رمضان من عام ٦١٠ للميلاد نزل عليه الملاك جبريل أمين الوحي بأول آيات القرآن ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: ٩٦/١-٥].

ولما كلفه الله تعالى بدعوة الناس إلى الإسلام كذّبه قومه، ولم يتبعه إلا أفراد قليلون، غالبهم من المستضعفين ؛ فتعرضوا للنَّكال الشَّديد، حتى مات بعضهم تحت العذاب، وصبروا كلهم، ولم يستطع أعداؤهم أن يثنوهم عن دينهم.

حاول النبيﷺ أن يقنع قومه بالدين الجديد، فكان بعض الشبان وكذلك الضعفاء والمظلومون ينضمون إليه كل حين.. أما الزعماء الكبار فزادوا إصراراً وعناداً، وتعرضوا لرسول اللهﷺ فآذوه، ونالوا منه، وحاولوا قتله، وقاطعوا آل بيته ثلاث سنوات، ومنعوا عنهم الطعام، فلم يكن يصل إليهم منه إلا اليسير وبطريق السر حتى أصابهم الجهد الشديد. ونشرت قريش

دعاية بين القبائل، تقول : إن محمداً مجنون وإنه ساحر وإنه شاعر وإنه كذاب، فنفرت القبائل من الإسلام، غير أفراد قلّة من أولئك الأقوام آمنوا بما نزل عليه.. فتعرضوا لاضطهاد أقوامهم.

وهيأ الله في غمرة الأحداث شيئاً من الفرج لضعفاء المسلمين حين خرجوا للهجرة إلى الحبشة، فاستقروا عند ملكها النجاشي الذي كان يحكم بالنصرانية وآمن بنبوة محمدﷺ.

لكن الأحوال في مكة كانت تسوء، وحدثت خلالها أحداث تألم لها النبيﷺ ؛ منها موت زوجته المخلصة خديجة التي وفرت له سعادة البيت، وموت عمه أبي طالب وكان يحميه من عدوان الكبراء. ولم يزدد عليه الصلاة والسلام تلقاء ذلك إلا إصراراً على الصبر، والرضا بما قدّر الله.

ولما يئس النبيﷺ من إسلام المكيين ونصرتهم أو هدنتهم رحل إلى الطائف قرب مكة، فدعا أهلها إلى الإسلام، فطردوه، وأغروا به سفهاءهم، فلحقوه حتى خارجها بالحجارة يقذفونه بها. وحين رجع إلى مكة كانت الدنيا كلها ضده، ترفع في وجهه لواء العداوة، إلاّ القلة المؤمنة الضعيفة، فالتجأ إلى الله وأطال دعاءه وتذلّله له. فاجتباه ربه، وأرسل إليه جبريل فسرى به ليلاً إلى بيت المقدس، ثم عرج به إلى السماء، فرآى من آيات ربه الكبرى ما رأى، واجتمع ببعض الأنبياء، وشاهد الجنة وما فيها، والنار والمعذبين بها.

وإذ علمت قريش بنبأ الإسراء سخرت منه، وضحكت.. وارتد بعض المسلمين، والنبيﷺ صابر، موقن بنصر الله الذي وعده إياه.

وبعد هذه المحن، وفي موسم الحج من السنة الحادية عشرة للبعثة جاء إلى مكة نفر من أهل يثرب فآمنوا بالنبيﷺ، ولما عادوا إلى قومهم بشَّروا به فبدأ الإيمان ينتشر في يثرب، ثم جاء منها في السنتين التاليتين أفراد آخرون بايعوه على الإسلام ونصرة الدين، ودَعَوْه للهجرة إليهم. فأمر المسلمين أن ينطلقوا إلى إخوانهم اليثربيين، فمضوا إليهم زرافات ووحداناً.. وإذ علمت قريش بنيّة رسول اللهﷺ الخروج خافوا أن يؤسس دولة، فحاصروه، يريدون منعه بأي ثمن، فلم يفلحوا. وخرج من بين سيوفهم وحرابهم سالماً حتى وصل يثرب، مع مطاردتهم له والبحث عنه.

أنشأ رسول اللهﷺ في يثرب - التي سماها المدينة - دولةَ الإسلام بعد ثلاث عشرة سنة من التعب في مكة، كان يعيش المسلمون فيها حياة الصبر على الأذى لا يتعرضون فيها لأحد، ولا يؤذون أعداءهم، لأنّ الله لم يفرض عليهم آنذاك أن يجابهوا عدوهم بالسلاح مهما فعل.

في سنة ٦٢٢ ميلادية إذنْ قامت دولة الإسلام في وضع حرج جداً؛ مجتمع غير متجانس، فيه مشركون لا يزالون على الوثنية،

وفيه يهود، لهم مصالحهم الخاصة، وناس أظهروا الإيمان، وحملوا في قلوبهم عداوة الرسول، وهؤلاء هم المنافقون الذين كانوا يتربصون بالنبيﷺ، ينتظرون الفرصة السانحة ليكونوا مع عدوه.. وإلى جانب هؤلاء المؤمنون المكيون المهاجرون الفقراء الذين جاؤوا المدينة، لا يملكون فيها شيئاً، وقد نزلوا على إخوانهم.. وكانوا يلاقون شظف العيش.

تحرك النبيﷺ سريعاً في المجتمع الجديد، فعقد مع اليهود معاهدة دفاع مشترك عن المدينة، فاعترف بهم وبدينهم، كما عقد معاهدات مماثلة مع القبائل حول المدينة، وفّر فيها جزءاً كبيراً من الأمن، وآخى بين المهاجرين وأهل المدينة الذين سُموا الأنصار، وجعل هذه الأخوّة كرابطة النسب والدم ..

وعرف أن قريشاً تتربص به، وتنتظر غفلة منه حتى تنقضَّ على المسلمين، وتستأصل الدين من جذوره، فلم يتوقف عن إرسال سرايا الاستطلاع لمجابهة أي عدوان منتظر، وليباغت القبائل التي يعلم أنها تتآمر عليه وتخطط للهجوم على المدينة، وليبعث رسالة واضحة لعدوه أن المسلمين صاروا في منعة، وليسوا على ضعف، فنشر الهيبة في قلوب القبائل الوثنيّة.

وفي الداخل انصرف النبيﷺ إلى عمران المدينة، فنظم خططها، بنى مسجدها الجامع، وحدد طرقاتها، وأنزل المهاجرين منازلهم، وأنشأ لها سوقاً واسعاً حدد له نظامه، ولم

يكن لأهلها سوق قبله وإنما اعتمدوا على أسواق اليهود.. واستقرت المدينة على نظام اقتصادي واضح.

في السنة الثانية من الهجرة بدأ الصدام بين المسلمين والمشركين وانتصر الأولون نصراً ساحقاً.. مع تفوق عدوهم في العدد والعدة مما رفع من معنوياتهم ونال من معنويات عدوهم.. ثم تتالت الوقائع بينهما سنة بعد سنة، فكان النبيﷺ هو المنتصر، ولئن خسر بعض المعارك لقد كانت النتائج في مصلحته دوماً. ومن جهة أخرى فإن اليهود لم يتوقفوا عن مجابهته والتآمر مع القبائل ضده على مدى أعوام، مع وجود معاهدة بينه وبينهم، خرجوا عنها فريقٌ بعد فريق.

ثم ما لبث أن توّج انتصاراته بفتح مكة عاصمة العرب، وعندئذ دانت له الجزيرة العربية من أطرافها جميعاً، وكان قد وجّه الرسائل للملوك والأمراء خارجها، فأسس بذلك حركة دبلوماسية ذات معالم واضحة، لم يُسبق إليها.

ولما تكاملت دولة الإسلام واستوت على سوقها في أواخر حياة الرسولﷺ تحرك الروم فأمر جيش أسامة بن زيد بالخروج إليهم، فلما كان على مقربة منهم تراجعوا وعرفوا أن المسلمين غدوا دولة مهابة، فعدلوا عن مجابهتهم..

ولقي رسول اللهﷺ ربه سنة ١١ هجرية الموافقة لسنة ٦٣٢ ميلادية وقد اكتملت الشريعة، واستقرت الحياة العامة في جزيرة

العرب، بعد أن وضع النبي ﷺ نظاماً للحياة من جميع جوانبها، وقد وجّه المسلمين إلى الفتوح.. وبنى حضارة متكاملة خلال ٢٣ سنة، هي أسرع الحضارات ظهوراً.

obeikandl.com